نشاط الطريقة التجانية في المجتمعات الإفريقية الإسلامية

النشاط السياسي والاقتصادي أنموذجا

الأستاذ شرويك محمد الأمين، طالب دكتوراه، جامعة بلعباس

الأستاذ الدكتور محمد مكحلي، جامعة بلعباس

ملخص: لقد كان للطريقة التجانية انتشار واسع في المجتمعات الإفريقية على غرار باقي الطرق الأخرى حيث شمل انتشارها مناطق عدة ولها نفوذها الكبير لا زال يزداد لغاية يومنا هذا وأصبحت تحتل أهمية بالغة في الحياة الروحية للفرد الإفريقي واحتلت مكانة مرموقة بفضل العدد الهائل من الأتباع وكذا الأدوار السياسية كالدور الذي لعبه الحاج عمر الفوتي الذي أسهم في نشر الإسلام والثقافة العربية ومقاومة الاستعمار الفرنسي فارتبط اسم التجانية في هاته الفترة بالمقاومة الوطنية في غرب إفريقيا.

يتجلى لنا الدور الاقتصادي للطريقة التجانية أنها أسهمت في انتعاش المبادلات التجارية بين شمال إفريقيا وغربها، حيث صارت التجارة وسيلة لنشر أفكار الطريقة فأنشئت قوافل تجارية تجوب الصحراء طولا وعرضا ووفرت لها هذه الطريقة الصوفية أسباب الأمن والازدهار عبر هذه الطرق التجارية.

الكلمات المفتاحية: الطريقة؛ التجانية؛ إفريقيا؛ الإسلامية؛ المجتمعات؛ السياسي.

Abstract : The method of Tajanip has spread widely in African societies like other ways, where the spread of several areas and has great influence continues to increase to this day, and has become very important in the spiritual life of the African individual and occupied a prestigious position thanks to the large number of followers and political roles such as Dora Played by Hadj Omar Fati who contributed to the spread of Islam and Arab culture and resistance to French colonialism was associated with the name Tijanit during this period of national resistance in West Africa.

The economic role of the tajanism is that it has contributed to the recovery of trade between North and West Africa, where trade has become a means of propagating the ideas of the method. Commercial convoys have been established that roam the desert in length and width, and this Sufi method has provided them with security and prosperity through these commercial routes.

key words: Africa; Islamic; Societies; Political; Economic.

مقدمة: لقد كان للتجانية دور كبير في انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، نشروه فكراً وسلوكا وذلك عن طريق القدوة الحسنة المقيمة بين الناس، نشروا العدل وحرضوا عليه وقاوموا الظلم وساووا بين الظلم والكفر، قاوموا الاستعمار لأنهم ربطوا بينه وبين الظلم ولأجل ذلك تعلقت قلوب المسلمين الأفارقة بمحبتهم، إلا أن البعض رأى فيهم مصانعين للاستعمار وصنايع له جهلا منهم بتاريخ الإسلام في إفريقيا من مصر إلى المحيط الأطلسي غربا والمحيط الهندي شرقا، وإن سير الأئمة المصلحين التجانيين تحكي عن ملاحم المقاومة والرفض أكثر مما تروي مظاهر الخضوع والخنوع.

لقد كان للطريقة التجانية ولأئمتها الأثر الواضح في نصرة الإسلام والعمل على النهوض بالمسلمين الأفارقة والأخذي بأيديهم، بل إن الإسلام لم ينتشر في أواسط إفريقيا وغربها إلا على أيدي الدعاة التجانيين.

وعلى هذا الأساس فالموضوع يعالج مسألة أساسية تتمثل في الأدوار التي لعبتها الطريقة التجانية في المجتمعات الإفريقية آواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر للميلاد، ومن خلال هذا الموضوع نطرح تساؤلا مركزا يدور حول محاولة فهم التحولات العميقة للمجتمعات الإفريقية من خلال فهم شيوخ التجانية للأوضاع السائدة فالسؤال المركزي الذي تناولته المحاولة هو:

- هل أدت الطريقة التجانية دورا هاما في نشر التعاليم الإسلامية وتأصيلها في المجتمعات الإفريقية؟ وهل يمكن القول بأن الطريقة التجانية حافظت على الإسلام ذاته في كثير من الفترات الحرجة في المجتمعات الإفريقية؟ وما هي طبيعة الظاهرة الصوفية في المجتمعات الإفريقية وفيما يتجلى الدور السياسي والاقتصادي الذي لعبته الطريقة التجانية في مختلف المجتمعات الإفريقية؟

- نشاط التجانية في المجتمعات الإفريقية الإسلامية (سياسيا واقتصاديا):

يرتبط معظم السودانيين في وسط وغرب إفريقيا برجال الدين بواسطة إحدى الطريقتين القادرية أو التجانية، ولقد كان انتشار هاتين الطريقتين ولا سيما التجانية عظيما في أثناء القرن التاسع عشر ولا يمكن تفهم إنتشار الدعوة الإسلامية على حقيقتها تماما، كذلك المنافسات الداخلية ضمن المجموعات الإسلامية دون النظر إلى ارتباط الزعماء المسلمين بإحدى الطرق الدينية، لأن النفوذ السياسي والاقتصادي للتجانية كان يرتبط إلى حد كبير بمدى الزعامة الدينية التي يتمتعون بها.**(محمد علي.إ،31،1988)**

1-نشاط التجانية في المجتمعات الإفريقية سياسيا- حركة الحاج عمر الفوتي نموذجا- : في القرن التاسع عشر انتشرت التجانية وكثر مريدوها وتعاظم شأنهم وأُعتبروا حلقة من حلقات الصحوة الإسلامية لأن وجودهم تصادف زمن الاحتلال الأوربي لبلدان إفريقيا فكان مريدوها من أشرس المقاومين للاستعمار (الفرنسي خصوصا)، فكان ذلك من السمات التي ميزت الطريقة التجانية في القارة الإفريقية هو موقفها من الحركة الاستعمارية وكل ما يخالف الشريعة الإسلامية حيث ثار مشايخ التجانية ضدها وكان لها دور فعال في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة سواء منها المحلية مثل الأمراء والحكام والولاة، أو الأجنبية الاستعمارية.

استطاعت الطريقة التجانية أن تلعب دورا مهما في المجالين الروحي والسياسي في بلاد غرب إفريقيا ، واكتسبت مكانة في نفوس الناس شعبا وحكاما ، وانضوت تحت لوائها دويلات وحكومات قامت على أسس دينية (**هلال .ع، 123،1988**) ، وقد كان مريدوها جنودا في المقاومة ضد الاستعمار في المرحلة الأولى ، قبل أن تتحول بعض رؤوسها فيما بعد إلى ممالئين لفرنسا ومن أمثال الدول الإسلامية التي قامت على أساس الدين والمذهب المالكي والطريقة التجانية دولة الحاج عمر الفوتي التجاني الذي اعتمد على الطريقة التجانية كمنهج عقائدي في إقامة دولة إسلامية في غرب إفريقيا. **(كاني.م،23،1995)**

ولد الحاج علي بن سعيد الفوتي عام (1212هـ/1797م) "بجلوار" قرب "بدور" في إقليم "فوتاتور" بالسنغال، تربى وترعرع بين أبوين كريمين وحفظ القرآن الكريم عن والده والشيخ سعيد بن عثمان وله من العمر إثنتا عشر سنة ثم اجتهد في تحصيل العلوم الشرعية واجتهد فيها قبل الثلاثين من عمره، أخذ مبادئ الطريقة التجانية عن الشيخ "مولود فال الشنقيطي" وكذا عن الشيخ "عبد الكريم أحمد الناقل" من علماء الفوتاجالون والأوراد اللازمة للطريقة سافر إلى البقاع المقدسة وهناك تعرف على الشيخ "محمد الغالي" وبقي في صحبته ثلاث سنين، كما زار مصر والمسجد الأقصى بالقدس الشريف وسوريا، ثم عاد إلى مكة للحج(**هلال.ع،124،1988**) بعدها عينه شيخه محمد الغالي خليفة للتجانية في السودان الغربي ثم عاد من الحجاز سنة 1832م حاملا مشروع تجديد الإسلام ومحاربة الوثنية وخلال عودته زار مملكة البرنو في عهد الشيخ "محمد الأمين الكانمي" وأقام بها ثمان سنوات أين أعجب بدعوة الشيخ "عثمان بن فودي" ولازمه مدة تزيد عن الخمس سنوات(05) وتزوج إبنة "أحمد بيلو" سنة 1837م(**بوعزيز.ي،137،2001**) ولما توفي هذا الأخير رحل الشيخ عمر الفوتي التكروري مع زوجته عائشة إلى دولة "ماسينا" ثم إرتحل بعدها إلى "إمارة سيجو" فطردته سلطتها فرحل إلى "كانجابا" ثم إلى منطقة "كانكان" واستقر بها مدة سبع سنوات يعظ الناس ويعلمهم مبادئ الطريقة التجانية وانطوى تحت لوائه أنصار وأتباع كثيرون آمنوا بدعوته

وطريقته الدينية التجانية ووهبوا أنفسهم للإسلام وتسلحوا بالأسلحة الحديثة التي كانوا يشترونها من التجار الأوربيين.

- إعلان الجهاد:

في عام 1848م جمع الحاج عمر الفوتي قوات كبيرة قادها إلى "دانقير" (Dinguray) وأعلن الجهاد في سبيل الله ضد الإمارات الوثنية وغزا "كارتا" والمناطق المحيطة بها **(عبد الرزاق إبراهيم.ع،100،2004)** وأخضعها له عام 1854م، وحاول أن يتعاون مع إمارة "ماسينا" لمهاجمة إمارة "سيقو" فرفضت وقام وحده بقواته بالإغارة على مدينة "خسو" ومدينة "جلم" بحوض السنغال الأوسط. **(بوعزيز.ي،138،2001)**

ولما اشتد تغلغل القوات الفرنسية في هذه المنطقة خلال أعوام (1857-1859م) اضطر الحاج عمر أن يوقف تقدمه غربا وأن يتحول نحو الشرق وغزا وفتح مملكة "سيقو" عام 1862م ومدينة تمبوكتو عام 1863.

لقد ركز الحاج عمر الفوتي أعماله وجهوده لنشر الإسلام ومحاربة الوثنية والعادات السيئة الخليعة، لكن بعض أصحابه رغبوا في متاع الحياة الدنيا والغنائم فأثاروا ضده الكثير من المتاعب، حيث ثارت ضده إمارة "البامبارا" في "سيقو" وإمارة الفولاني "بمسينا" وتم اغتياله عام 1864م غدرا به وهو في قمة مجده قبل أن يكمل بناء دولته الإسلامية وتعرض بعده أبناؤه وولاته في الأقاليم لثورات السكان. **(هلال.ع،131،1988)**

وكان الحاج عمر الفوتي قد عين ابنه الشيخ أحمدو**(الماحي.ع،153،1975)** خليفة له فأخذ مكانه وتطلع لإقامة علاقات تجارية وثقافية وسياسية مع الدول المجاورة ومع الفرنسيين في حوض السنغال ومع الإنجليز في غامبيا وسيراليون وسار على نهج والده بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية والعمل على استتباب الأمن والاستقرار داخل البلاد.

كما استفاد الفرنسيون من نفوذ الطريقة التجانية في الجزائر بما يخدم مصالحهم في غرب إفريقيا إلا أن حركتهم التوسعية مع بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر ميلادي والتي أوكلت مهمتها للكولونيل "غوستاف بورقيس ديبورد" (Gustave Borguis Desbords) في أول جانفي 1881م الذي اصطدم بمقاومة الشيخ أحمدو إبن الحاج عمر الفوتي، فرغم الحملات العسكرية المتتالية التي قادها الكولونيل ديبورد فإنه لم يفلح واضطره الأمر في الأخير إلى استخدام التأثير الروحي لقادة التجانية الموالين

لفرنسا في الجزائر بإعتبار الشيخ أحمدو تجاني الطريقة، ولهذا الغرض تدخل الحاكم العام الفرنسي بالجزائر السيد " ترمان" (Tirman) وطلب من قادة التجانية في زاويتي تماسين وعين ماضي تدعيم الكولونيل ديبورد برسائل توصية لتسهيل مهمته في منطقتي "الفوتا" و"سيقو" عاصمة دولة أحمدو. **(التلمساني.ي،239،1997)**

فأرسل قادة التجانية رسائل توصية(**Rinn.l ,1884,436-439**) إلى خلفاء الطريقة التجانية يحثونهم على التعاون مع الفرنسيين وفتح أراضيهم للتجارة وإبرام علاقات تجارية من شأنها أن تعود على الجميع بالفائدة.

وعلى الرغم من أن أهم هذه الرسائل لم تلق استجابة كاملة من قبل الشيخ أحمدو ابن الحاج عمر الفوتي إلا أن انتشارها يبدوا أنه خلق مشاكل داخلية لحركة الشيخ أحمدو وأدت بهذا الأخير إلى توقيعه اتفاقية " قوري" في 12 ماي1887م تتضمن الاعتراف بالسلطة الفرنسية وإقامة علاقات تجارية، لكن سرعان ما نقضت فرنسا هذه الاتفاقية.

وبعد مؤتمر برلين سنة (1884-1885م) تم احتلال دولة التكرور من قبل فرنسا فاضطر الشيخ أحمدو للانتقال إلى "نيورو" وبعدها توفي سنة 1898م قبل أن يصل إلى دولة سوكوتو وخلفه إبنه "محمد باسيرو" وهكذا انتهت الدولة الإسلامية التي أسسها الحاج عمر بن سعيد الفوتي التكروري بمجرد القضاء على قواتها العسكرية ولجوء أميرها إلى سوكوتو واحتلال مدينة "ماسينا" سنة 1893م. **(بوعزيز.ي،139،2001)**

- النتائج التي حققها الشيخ عمر الفوتي:

من أهم ما ميز حركة الشيخ عمر الفوتي هو أنها نجحت في تقوية روابط الوحدة بين المسلمين في غرب إفريقيا وأقامت دولة أكثر مركزية من دولة سوكوتو أو دولة الشيخ أحمدو ولوبو الماسينية **(مسعودي.ز،82،2009)** ، كما أنه نادى غيره من المصلحين بالتربية الروحية عن طريق ممارسة أوراد الطريقة التجانية واعترض على التقليد والمحاكاة وانتهج مبدأ الإجتهاد الشخصي.

كما أن جهاده وقع خارج بلاده في فوتاتور مما ساعد على تحقيق النجاح لحركته الإصلاحية خاصة وأن الشعب التكروري كان دائما محبا للعلماء والدعاة الذين ظهروا بعد حركة المرابطين فوجد الحاج عمر الفوتي تأييدا من علمائها، إضافة إلى ذلك أنه أسس دولة إسلامية قوامها إتباع مبادئ

الطريقة التجانية، ومن خلال هذا النموذج تجلى لنا الدور السياسي الذي لعبته الطريقة التجانية في المجتمعات الإفريقية الإسلامية.

2- - **نشاط التجانية في المجتمعات الإفريقية إقتصادياً:** وإذا تحدثنا عن الجانب الإقتصادي ففي هذه الحقبة التاريخية اتجهت أنظار التجانيين خاصة إلى إفريقيا الوسطى ومنطقة التوارق والسودان الغربي ولم يقتصر نشاطهم على بعث الدعاة فحسب ولكن اتخذوا من التجارة وسيلة لنشر طريقتهم فأنشأوا قوافل تجارية كانت تخترق الصحاري من أدرار إلى تمبوكتو ثم سيغوا ومنها إلى السنغال ذهابا وإيابا ووفروا لها كل الشروط المادية والأمنية. **(هلال.ع،126،1988)**

كما أبدت التجانية جهودها في هذا المجال حيث وفرت الأمن في كثير من الأحيان للقوافل التجارية في غرب إفريقيا بفضل الزوايا المنتشرة والتي كانت عبارة عن مأمن من اللصوص وقطاع الطرق ومكان لخزن البضائع التجارية إلى حين نقلها لأماكن بيعها فساهمت بذلك في إنتعاش النشاط التجاري بين شمال إفريقيا وغربها إضافة إلى ذلك تصدت التجانية لكل الأمور التي تخالف الشريعة الإسلامية كفرض الضرائب المجحفة.

حصلت التجانية على نصيب وافر من التجارة عن طريق بث زواياها عبر الصحراء ويعتبر هذا مصدر دخل هام للزوايا التجانية كما قامت بتوزيع الأراضي حول الزوايا من أجل زراعتها حيث تم تشغيل الأفارقة الأمر الذي حقق ازدهارا ورفاهية اقتصادية للمجتمعات الإفريقية الإسلامية نتج عنها قيام مدن وقرى وفرت الأمن والاستقرار ونشرت الدين الإسلامي. **(عبد الرزاق إبراهيم.ع،229،2004)**

كما أسهمت هذه القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحراء من الشمال إلى الجنوب دورا كبيرا في نشر الطريقة التجانية في أوساط المجتمعات الإفريقية الغربية. **(مسعودي.ز،85،2009)**

لقد تدفقت الخيرات على عين ماضي خاصة بين سنتي (1830-1843م) وكانت هذه التجارة المزدهرة التي أقامها التجانيون بين عين ماضي "عاصمتهم" وغرب إفريقيا السوداء والمحافظة عليها وعلى الأرباح الهائلة التي يجنونها منها سبباً من الأسباب الهامة التي جعلتهم يرفضون مد يد المساعدة ولو معنويا للأمير عبد القادر الجزائري عندما طلب منهم ذلك وهو الشيئ الذي اضطر الأمير أن يحاصر عين ماضي في سنة 1839م محاولا اكتساب التجانية إلى صفوفه ولكن بدون جدوى. **(هلال.ع،126،1988)**

لقد أسهم موقع الزوايا التجانية على مشارف الطرق الرابطة بين المغرب وتونس وحتى المشرق، وتحكمها في طرق القوافل العابرة للصحراء والقادمة من السودان جعل من زواياها محطات تجارية آمنة،

هذا الموقع الهام مكن الطريقة التجانية من الحصول على أرباح كثيرة، إضافة إلى امتلاكها العديد من أشجار النخيل في الجزائر والجنوب التونسي. **(التلمساني.ي،45،1997)**

خاتمة:

- إن وصول الإسلام إلى غرب إفريقيا ساعد على التعريف بالمنطقة أكثر وأعطى دفعا للشعوب الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، ويعد ذلك حدثا هاما على قارة إفريقيا فقد أنعم الإسلام عليها بحضارة حديثة راقية طبعت شعوبها بطابع خاص في مختلف مجالات الحياة كما عمل على تنشيط التجارة الخارجية ورفع مستوى الحياة وجعلت من الإفريقي يعتز بإفريقيته وحضارته وثقافته وساهم في إبرازها والتعريف بها أكثر وغيرت من عاداته وتقاليده الوثنية.

- لقد انتشر الإسلام في هذه المنطقة بالطرق السلمية حيث حمله الدعاة والفقهاء الذين انطلقوا من المساجد والزوايا، وكذلك التجار الذين انطلقوا من مراكز التجارة التي أقاموها في مناطق مختلفة، كما ظهرت عدة دويلات أسهمت في هذا المجال ورفعت لواء الإسلام وتكلفت بنشره في أنحاء القارة الإفريقية.

- لقد كان للطريقة التجانية انتشار واسع في المجتمعات الإفريقية على غرار باقي الطرق الأخرى حيث شمل انتشارها مناطق عدة ولها نفوذها الكبير لا زال يزداد لغاية يومنا هذا وأصبحت تحتل أهمية بالغة في الحياة الروحية للفرد الإفريقي واحتلت مكانة مرموقة بفضل العدد الهائل من الأتباع والأدوار السياسية البارزة مثل الدور البطولي الذي لعبه الحاج عمر الفوتي الذي أسهم في نشر الإسلام والثقافة العربية وقاومت الإستعمار الفرنسي فارتبط اسم التجانية في هاته الفترة بالمقاومة الوطنية في غرب إفريقيا وهو ما ميز موقفها الواضح والمعادي للاستعمار حيث ثارت وشجعت على الجهاد ضده.

- يتجلى الدور الاقتصادي للتجانية من خلال أنها أسهمت في انتعاش المبادلات التجارية بين شمال إفريقيا وغربها، واتخذوا من التجارة وسيلة لنشر طريقتهم فأنشئوا قوافل تجارية تجوب الصحراء طولا وعرضا ووفرت لها أسباب الأمن والإزدهار.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمدو لوبو الماسيني، ولد سنة 1775م تعلم في مدينة جني على الضفة اليسرى لنهر النيجر، حيث درس الفقه والحديث والتفسير والتاريخ الإسلامي والسير، أنظر: مسعودي، زهرة، (2009/2010م).**الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب**

إفريقيا من القرن 18 إلى القرن 20م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في (التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر). جامعة أدرار، الجزائر.

2- التلمساني، بن يوسف،(1997/1998م). **الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر**،رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في (التاريخ الحديث والمعاصر). جامعة الجزائر: الجزائر.

3- الشيخ أحمدو (1755م- ت1844م)، ولد في مدينة جني أسس مدينة حمد الله سنة 1815م التي اتخذها عاصمة لدولته التي ضمت مالي وبوركينا فاسو، أنظر: عمر الماحي، عبد الرحمن،(1975م) **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

4- إبراهيم عبد الله، عبد الرزاق،(2004).**الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، ط:01،القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع.

5- بوعزيز، يحي،(2001). **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين**، الجزائر: دار هومه.

6- كاني احمد، محمد ،(1995). **حركة الجهاد الإسلامي في غرب افريقيا في القرن التاسع عشر في ندوة الشيخ عثمان بن فودي** ، الخرطوم: إصدار جامعة إفريقيا العالمية والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم .

7- محمد علي، إلهام، (1988م). **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الإستعمار الفرنسي (1850-1914م)** ، الرياض: دار المريخ للنشر.

8- هلال، عمار، (1988م). **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء**، الجزائر:المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

9- Rinn. L, (1884) .**Marabouts et khouan**, étude sur l’islam en Algérie, Alger : imp, Adolph Jourdan.